الشمائل النبوية في ضوء شعر أبي طالب

عبدالمجيد البغدادي *

ثناءالله حسين **

إن الله تعالىٰ خلق الخلق فهدى ، وجعل أول الناس ادم ، نبيا قبل إرساله وهبوطه إلى الأرض، وهذا الاهتمام مظهر و مبين لأهمية الهداية عند الله تعالىٰ ، فأرسل الله تعالىٰ النبيين والهادين في كل قوم و في كل مكان و في كل زمان، كما قال تعالىٰ: وَ اِن مِّن أُمَّةٍ اِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ (١) وأيضًا قال: وَ لِكُلِّ قَومٍ هَادٍ(٢)

والله سبحانه وتعالى بعث النبي ﷺ لهداية العالم كله والأمة المحمدية ذهبت إلىٰ أقصى نهايات و أعلى غايات في حفظ تعليماته ﷺ و لنشر مدائحه و محامده و أحواله الشخصية و عاداته الذاتية و أوصافه الخلقية و الخلقية ، و سجلت كل هذه تحت عنوان"السيرة المحمدية" و منها الشمائل المحمدية.

نظم كثير من الشعراء أوصاف النبي الكريم ﷺ و سيرته في شعرهم من بدء صدر الإسلام. والمشهورون منهم حسان بن ثابت ، و عبدالله بن رواحة ، وكعب بن مالك ، و أبوحيان النحوي الأندلسي، والبوصيري، وابن حزم الظاهري والعلامة محمد يوسف النبهاني و غيرهم كثير لا يحصى عددهم.

ومن هؤلاء الشعراء السعداء شعراء بني هاشم أيضاً وهم أهل قبيلة النبي الكريم ﷺ وهم فاتحو هذا الباب ، لأن عبد المطلب ، جد النبى ﷺ ورئيس بني هاشم في وقته ذكره ﷺ في الشعر، و أبو طالب ، عم النبى الكريم ﷺ كان أول الشعراء قاطبة الذي مدح الرسول ﷺ بعد البعثة ، فهو فاتح هذا الباب و عنوان المحامد الشعرية.

وهذا المقال يختص بدراسة شعر أبي طالب عم النبى ﷺ فأولا نبدأ بتعريف أبي طالب.

هو أبو طالب عبد مناف بن عبدالمطلب بن هاشم ، يُكنّى بأبي طالب، عم النبى الكريم ﷺ وكفيله بعد جده وحاميه وناصره ، والد أمير المؤمنين على المرتضى رضي الله عنه. كان من سادات قريش و عظمائها ومن أبرز شعرائها و خطبائها. وُلد أبو طالب في مكة المكرمة قبل مولد النبى الكريم ﷺ بخمس و ثلاثين سنة (٣) أي في سنة ٥٣٥ تقريباً، و توفي للنصف من شوال في السنة العاشرة من البعثة ٤ و شعره الذي قال بعد بعثة النبي الكريم ﷺ مملوء باعتراف عظمة النبي الكريم ﷺ ، من مدحه، و عزم الدفاع عنه ، والملامة على أعدائه. وظهر من شعره في المديح شدة حبه لابن أخيه الكريم ﷺ ، و في أيام مقاطعة قريش حين حوصرت بنو هاشم ومن معهم في شعب أبي طالب، إن أبا طالب يخاف كثيراً على النبي الكريم ﷺ بقتله ، فكان يقيمه كل ليلة من مضجعة ، وينام أحد من أبنائه مكانه ، فذات ليلة إذا يقيمه ﷺ و أمر ابنه عليا أن ينام مكانه، فقال له علي رضي الله عنه: "يا ايت إني

* أستاذ مساعد ، قسم اللغة العربية ، جامعة العلامة إقبال المفتوحة ، إسلام آباد باكستان.

** أستاذ مساعد ، قسم القرآن والتفسير ، جامعة العلامة إقبال المفتوحة ، إسلام آباد باكستان.

مقتول؟"

فقال له: (من الخفيف)

إصـــبِرَن يا بُنَيَّ فَـالصَـــبرُ أَحـجـى كُـلُّ حَـيٍّ مَصـــيرُهُ لِشَـــعـوبِ
قَـد بَلِيَ الصَـــبرُ وَالبَلاءُ شَـــديـدٌ لِـفِـداءِ الحَـبـيـبِ وَابـنِ الحَـبـيـبِ
الـنَـبِيِّ الأَغَـرِّ ذي الحَسَـــبِ الـثـا قِـبِ وَالـبـاعِ وَالـكَـرِيمِ الـنَـجـيـبِ(٥)

فالصبر أحجىٰ، أي أولىٰ.

وفي هذه الأبيات يذكر الشاعر عدة من خصال النبي و شمائله ﷺ ، أي أنه حبيب، و ابن الحبيب ، والأغر، و ذوحسب ، والثاقب ، أي صاحب القول الثاقب ، والبارع أي أرفع الناس فضلاً و شرفاً.

و إذا تبين أن الأرضة أكلت صحيفة القطيعة ، قال عدة أبيات في قصة الصحيفة

و ذكر في بعض أبيات هذه" القطعة" أوصاف النبي ﷺ شمائله ، وهي:

ومـا ظُلْمُ مَن يَـدْعو إلى البِرِّ والتُّقَى ورأبُ الثـأَي في يومِ لاحينَ مَشْـــعَـبِ؟
مَحـا اللهُ مِـنـهـا كُـفْـرَهُـم وعُـقُـوقَـهُـمْ ومـا نَقَموا مِن صـــادِقِ القَوْلِ مُنْجِـبِ
فـأمســـى ابنُ عبـدِ اللهِ فينـا مُصَـــدَّقـاً على ســـاخطٍ مِنْ قَومِنا غيرِ مُعتَبِ (٦)

و من الشمائل المذكورة في هذه الأبيات بأنه ﷺ كان داعياً إلى البر والتقى ،

وكان صادق القول و مصدقاً.

وقال ابو طالب مخاطباً لأحد أقاربه و هو أبو أروىٰ ربيعة بن الحارث بن عبدالمطلب

بن هاشم مذكراً له مكانة النبي ﷺ و منزلته الرفيعة ، وفيه: (من الكامل)

إعـلَـمْ أبا أرْوَى بأنَّـكَ مـاجـدٌ مِن صُـــلْـبِ شَـــيبَةَ فانْصُـــرَنَّ محمَّدا
للهِ دَرُّك إنْ عـــرفْـــتَ مـكـانَـــهُ في قومـهِ ووَهَبْـتَ منـكَ لـهُ يَـدا! (٧)

وقال في مدح النبى ﷺ: (من مجزوءالكامل)

وَلَـقَـد عَـهِـدتُـكَ صـــادِقـاً في الـــقَـــولِ لا تَـــتَـــزَيَّـــدُ
مـا زِلـتَ تَـنـطِـقُ بِالصَـــوا بِ وَأَنـــتَ طِـــفـــلٌ أَمـــرَدُ (٨)

يوضح الشاعر هنا صدق النبي ﷺ منذ طفو ليته. ولما سافر أبو طالب مع النبي

الكريم ﷺ في أيام طفوليته إلى الشام ، ونزل ، بمقام بصرىٰ وهناك عرف بحيرا الراهب مكانة النبي ﷺ ومنزلته و جاء أحبار يهود لقتل النبي الكريم ﷺ فنصحهم بحيرا وناظرهم و منعهم من إرادة القتل ، فقال الشاعر ذاكرا هذه القصة: (من الطويل)

فـمـا رجـعـوا حـتى رأَوْا مِـن محـمَّـدٍ أحـاديـثَ تَجْـلـو هـمَّ كـلِّ فُـؤادِ
وحـتَّى رأَوا أحـبـارَ كـلِّ مـديـنـةٍ سُـــجـوداً لـهُ مِن عُصْـــبـةٍ وفُرادِ

ذَرِيرا وتَمَّاما وقد كانَ شاهدا دَريسٌ وهُمُّوا كلُّهُم بفسادِ
فقالَ لَهُم قَولاً بَحِيرا وأَيْقَنوا لهُ بعدَ تكذيبٍ وطُولِ بَعادِ
كما قالَ للرَّهْطِ الذينَ تَهَوَّدوا وجاهَدَهُم في اللهِ كلَّ جِهادِ
فقالَ ولم يَتْرُكْ لهُ النُّصْحُ رِدَّةً فإنَّ لهُ إرصادَ كلِّ مَصادِ
فإني أخافُ الحاسِدينَ، وإنَّهُ لَفي الكُتْبِ مَكْتوبٌ بكُلِّ مِدادِ (٩)

هذه الأبيات أيضاً مذكورة في "الخصائص الكبرى" للسيوطي(١٠) ويبدوا من هذه الأبيات بأن بحيرا و قريشا و أحبارا اليهود كلهم رأوا ماظهر من رسول الله ﷺ من أشياء النادرة ، و وضح بحيرا ما يجدون في كتبهم من ذكره و وصفه و تصديق نبوته ﷺ .

و أيضاً قال ما قال ذاكراً هذه القصة ، وقال فيه: (من الكامل)

حتى إذا ما القومُ بصرى عايَنوا لاقَوْا على شَرَفٍ منَ المِرْصادِ
حَبرا فأَخْبَرَهُم حديثا صادقا عنهُ وردَّ معاشرَ الحُسّادِ
قومٌ يهودٌ قد رأوا ما قد رأوا ظِلَّ الغمامةِ ثاغِري الأكبادِ
ثاروا لقتلِ محمدٍ فَنَهاهُمو عنهُ وجاهدَ أَحسنَ التّجْهادِ
وثنى بَحِيراءٌ ذريرا فانْثَنى في القَومِ بعدَ تَجادُلٍ وتَعادي
ونهى دَريسا فانْتَهى لِما نُهي عن قَولِ حِبرٍ ناطقٍ بِسَدادِ (١١)

وفي هذه الأبيات ذكر ما ظهر من شرف النبي ﷺ على أهل بصرى و الرهط والأحبار ، حيثما ظلت السحاب عليه ﷺ و قال مرة مادحاً له ﷺ : (من الوافر)

بَني أَخي وَنوطُ قَلبي مِنّي وَأَبيضُ ماؤُهُ غَدَقٌ كَثيرُ
وَيَشرَبُ بَعدَهُ الوِلدانُ ريّاً وَأَحمَدُ قَد تَضَمَّنَهُ القُبورُ
أَيا اِبنَ الأَنفِ أَنف بَني قُصَيٍّ كَأَنَّ جَبينَكَ القَمَرُ المُنيرُ (١٢)

أي إن ابن أخي هو بضعة مني و قطعة قلبي وهو حسن الوجه أي سيد كريم وعرضه أو شرفه أعلى العلا. وليس بممكن أن قد قتل محمد ﷺ و أولادي يأكلون ويشربون . ثم يخاطب النبي ﷺ و يقول : "يا ابن أخي! أنت عز بني قصي و عز قريش كله ، وجبينك يتلألأ بنور كأنه قمر منير."

وهذه الأبيات كلها في الشمائل المصطفوية.

و حض أبوطالب على ترك العداوة و نصرة محمد ﷺ في الأبيات ، وقال أيضاً مادحاً ابن أخيه النبي الكريم ﷺ (من الرجز)

ولكنَّه مِن هاشمٍ ذو صَميمِها إلى أبحُرٍ فَوقَ البحورِ طَوافِ (١٣)

أي أنه ﷺ وارث مجد آل هاشم و صميمها و عزه فوق البحار و أكثرها.

وقال يحذر القوم من نتائج العداوة بالنبي ﷺ ، وفيه قال: (من المتقارب)

وأعجبُ مِن ذاكَ مِن أمرِكُم عَجائبُ في الحَجَرِ المِلْصَقِ
بكفِّ الذي قامَ مَن حَيْنُه إلى الصَّابرِ الصادقِ المتَّقي
فأيبسَهُ اللهُ في كفِّهِ على رُغْمِهِ الجائرِ الأَحمقِ (١٤)

وفي هذه الأبيات قد ذُكرت من الشمايلِ : الصبرُ و الصدق و التوكلّ ، و على صنعة التضاد مذمة أشد الأعداء ، (أي أبي جهل) بأنه جائر و أحمق و أيبس الله كفه. قال أبو طالب في قصيدته الشهيرة بـ"لامية أبي طالب" في أيام شدة البلايا والمحن حين حوصرت بنو هاشم في الشعب ، و قال الإمام ابن كثير عن هذه القصيدة :

"قلت: هذه قصيدة عظيمة بليغة جداً ، لايستطيع أن يقولها إلا من نسبت إليه ، وهي أفحل من المعلقات السبع و أبلغ في تأدية المعنى فيها جميعا."(١٥)

وذكر أبوطالب في هذه القصيدة أوصاف النبي الكريم ﷺ: (من الطويل)

وما تركُ قوم -لا أبالك – سيداً يحوط الذمار غير ذرب مواكل
وأبيضُ يستسقي الغمام بوجهه تمالِ اليتامى عصمةٍ للأرامل
يلوذُ به الهلاك من آل هاشمٍ فهم عنده في رحمةٍ وفواضل (١٦)

أي أن النبي ﷺ هو سيد كل بني هاشم و لن يترك القوم سيدهم الذي يحوط و يرعى حقوقهم غير عجز و غير اتكال على أحد وهو أبيض الوجه أي سيد كريم و يطلب إنزال المطر من الله ببركته ، وهو ملاذ اليتامى و مأواهم وحافظ للمساكين من الرجال و النساء ، ويستغيث به الفقراء و يجدون عنده كل نعمة ، فهذه الأبيات أبرع ما قيل في الشمايل . و قال أبو طالب في هذه القصيدة :

لعَمري لقد كَلِفْتُ وَجْدا بأحمدٍ وإخوتهِ دأبَ المحبِّ المواصِلِ
أقيمُ على نصرِ النبيِّ محمدٍ أقاتلُ عنهُ بالقَنا والقنابلِ
فلا زالَ في الدُّنيا جَمالاً لأهلِها وزَينا لم ولأَهُ رَبُّ المشاكِلِ
فمَنْ مثلُهُ في النَّاسِ أيُّ مؤمَّلٍ إذا قاسَه الحكَّامُ عندَ التَّفاضُلِ
حليمٌ رشيدٌ عادلٌ غيرُ طائشٍ يُوالي إلهاً ليسَ عنهُ بغافلِ
فأيَّدَه ربُّ العبّادِ بنصرِهِ وأظهرَ دَينا حقُّه غيرُ ناصلِ (١٧)

يُلاحظ في هذه الأبيات إظهار شدة محبة النبي ﷺ و عزم الدفاع عنه و بيان شمائله ، مثلاً ليس في الناس المرجو بكل خير مثله ، وهو حليم و رشيد و عادل و غير طائش أي ليس خفيفاً ، وهو يتخذ الله في كل حين وليس عنه بغافل ، وهو المؤيد بنصر الله ودينه وهو حقيقة غير زائلة. و قال فيه أيضاً :

لقد عَلموا أنَّ ابْنَنا لا مُكذَّبٌ لَدَيهم ولا يُعْنىَ بقَوْلِ الأباطلِ (١٨)

قد تيقن جميع الأعداء وهم مقرون بأن البني الكريم ﷺ صادق حتى عندهم ولا ينطق إلا بالحق ، و هذا البيت يؤكد

ما جاء في القرآن الكريم:

قَدْ نَعْلَمُ اِنَّه لَيَحْزُنُکَ الَّذِیْ یَقُوْلُوْنَ فَاِنَّھُمْ لَا یُکَذِّبُوْنَکَ وَ لٰکِنَّ الظّٰلِمِیْنَ بِاٰیٰتِ اللّٰهِ یَجْحَدُوْنَ (١٩)

وقال أبو طالب في أواخر القصيدة ، وهي ذروة سنام عواطفه :

سَـــيَعْلمُ أهـلُ الضِّـــغْنِ أيّي وأيُّهُمْ ... يـفـوزُ ويـعـلـو في لـيـالٍ قـلائـلِ

وأيُّـهُـمـو مـنّي ومـنْـهُـم بســـيـفـهِ ... يُلاقي إذا مـا حـانَ وقـتُ التَّـنـازُلِ

ومَـنْ ذا يمَـلُّ الحـربَ مـني ومِـنْـهـمـو ... ويحـمـدُ في الآفـاقِ مِـن قَـولِ قـائـلِ؟

فـأصـــبـحَ فـيـنـا أحـمـدٌ في أُرومـة ... تُـقصِّـــرُ عـنـهـا سَـــورةُ المتَـطـاوِلِ

كـأنَّي بـه فـوقَ الجـيـادِ يـقـودُهـا ... إلى مـعشـــرٍ زاغـوا إلى كـلِّ باطـلِ

وجُـدْتُ نـفســـي دونَـهُ وحَمَـيـتُـهُ ... ودافَـعْـتُ عـنـه بالـطُّـلى والـكـلاكـلِ

ولا شَـــكَّ أنَّ اللهَ رافـعُ أمـرِهِ ... ومُعليـهِ في الـدُّنيـا ويومَ التَّجـادُلِ(٢٠)

الخلاصة

قد ألقينا الضوء بالاختصار على بعض الأشعار التي تتعلق إلى الشمائل النبوية من ديوان أبي طالب ، و هذه الأبيات كلها حافلة من صدق العاطفة وهي مملوءة ببيان الشمائل، و تشهد على عزم أبي طالب لدفاع النبيﷺ و فراسته ما وقعت بين النبى ﷺ و بين أهل مكة ، و رأت الدنيا أن ما قال أبو طالب قد وقع في الحقيقة .

فأكثر ديوان أبي طالب يشتمل على ذكر النبى الكريم ﷺ و بيان أوصافه و شمائله،

وكل بيت من الأبيات المذكورة يشير إلى غاية حب الشاعر في محبة النبي الكريم ﷺ وعلى شمائله ﷺ .

الهوامش

(١) سورة الفاطر:٢٤

(٢) سورة الرعد: ٧

(٣) الإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني :٤/١١٠،الكتب خانة الخديوية المصرية ، الطبعة الأولى.

(٤) كتاب الطبقات الكبير، محمد بن سعد الزهرى:١/٧٧

(٥) الدكتور محمد التونجى، ديوان ابى طالب عم النبى ﷺ ، ص: ٢٤

(٦) نفس المصدر : ٢٤

(٧) نفس المصدر:٣٢

(٨) نفس المصدر:٣٦

(٩) نفس المصدر:٣٧-٣٨.

(١٠) الخصائص الكبرىٰ، الحافظ جلال الدين السيوطى:١/٢١٠.

(١١) ديوان ابى طالب عم النبىﷺ : ٣٨-٣٩.

(١٢) نفس المصدر : ٥٠.

(١٣) نفس المصدر: ٥٦.

(١٤) نفس المصدر : ٥٨-٥٩.

(١٥) ابن كثير،الإمام الحافظ ابوالفداء، إسمعيل بن عمر ،الدمشقي ، البداية والنهاية ، ص:٣/٥٥، دار الكتب العلمية ، بيروت.

(١٦) ديوان أبي طالب عم النبى ﷺ ، ص:٦٧.

(١٧) نفس المصدر: ٧٢-٧٣.

(١٨) نفس المصدر: ٧٣.

(١٩) الأنعام :٦/٣٣.

(٢٠) ديوان ابى طالب عم النبى ﷺ،ص:٧٤.

☆☆☆☆☆☆☆☆☆☆